وصفي قرنفلي :
بين الرومنسية والواقعية

قصي أتاسي

مما لا شك فيه ان الحركة الرومنسية لا يمكن درسها او فهمها بمعزل عن جذورها التاريخية ، ولهذا لا بد من الرجوع الى ذلك الوضع الجديد الذي نجم بعد ميلاد العصر الرأسمالي ، هذا العصر الذي نبتت فيه بذور الحركة الرومنسية وتفرعت أغصانها ثم ازدهرت وأثمرت .

في تلك البيئة الجديدة ، وفي ظل أوضاع طارئة فرضها النظام الرأسمالي فتح الفنان عينيه فوجد نفسه محاطا بما لم يألف ولم يفهم ، انه وضع غريب راح كل شيء فيه يتحول الى سلعة ، كما راح العالم القديم يتفكك ليصير ذرات تدور في دوامة عاتية ظالمة غامضة.

وهكذا فالعلاقات الانسانية التي كانت سائدة في النظام القديم أصبحت خاضعة لمجموعة من المؤثرات والعوامل الجديدة . فالانسان في ظل هذا النظام الوليد، بعد أن كان يتعامل مع انسان ، صار يتعامل مع سلعة.. مع أشياء .. مع أوراق نقدية .. مع أرقام وجداول حسابية وخطوط بيانية . وكما أصبح الفن سلعة أصبح الفنان منتجا للسلع .. وهو معرّض اذن للمنافسة القاسية في سوق حرة ظالمة لها قوانينها المستعصية على الفهم . الحافلة بالتناقضات المريرة الخانقة .

في مثل هذه الاجواء الغريبة ، وتحت ضغط هذه التناقضات والظروف اللاانسانية أحسّ الفنان بأنه محاصر يكاد يختنق أو يضيع ، ولذا ما عاد بوسعه أن يدافع عن عالم هذا شأنه ، عالم يحسّ فيه بالغربة والعزلة ، عالم يسحق شخصه ويدمر فرديته ويذوّب ذاتيته وخصائصه كانسان ، ويفجعه بأعز ما يملك ... فكانت الرومنسية حركة احتجاج صارخ على الدنيا الرأسمالية البورجوازية ، على التفاهة والتجهم والقسوة التي ترافق عالم الاعمال والربح والمنافسة ..

وهكذا كان من التجارب الاساسية التي حرص الرومنسيون على تصويرها ، تجربة الفرد الذي يقف وحيدا في مجابهة العالم ، غريبا بين الغرباء ، (أنا) منفردة في مواجهة (اللاأنا) الهائلة الغامضة المخيفة ، مما ادى الى تقوية الشعور بالحيرة والضياع والذهول والانطواء على النفس والعزلة الكئيبة الموحشة مع المشاعر الداخلية والاحاسيس الفردية .

ولذا تحرر الرومنسيون من سلطان العقل الذي كان يحكم دولة الكلاسيكية ، واعطوا الحرية ، ملء الحرية ، لأهوائهم ونزعاتهم ونزغات نفوسهم ، فانطبع انتاجهم بطابع شخصياتهم وذواتهم ، وظهرت فيه الاعترافات الشجية ، كما ظهر البوح الناعم الهامس بمكنون الوجدان .

أما الخيال فلا تسل عن دوره ، فهو الملاك المخلص ، وعنده العزاء ، وعلى أجنحته الذهبية سلوى. لا تعادلها سلوى ، وعالم سحري عجيب .

أما القواعد والقوانين التي وضعها الكلاسيكيون فالى الجحيم ، وفي قلب كل فنان نبع لا ينضب ، وحماسة لا تجف ، وتفجر ذاتي لانفعالات وصبوات لا انتهاء لها ، فليجدد كل فنان اذن ، وليستق من ذاته ما شاء ، وليأت بأخصب العطاء دونما حاجة الى قانون او قاعدة ، وفي أحضانك أيتها الطبيعة مسرح للفكر والشعور ، وملعب يا له من ملعب للخيال والجموح ، وواحات ظليلة لكل متعب هارب من جحيم الوجود !

* * *

وحينما تفتحت أبواب العالم العربي وأشرعت نوافذه ليستقبل التيارات الادبية والمذاهب الفكرية ، كانت الرومنسية أسبق من غيرها في الوصول ، بل وأكثر المذاهب قبولا في دنيا الادب . وسرعان ما وجدت تربة خصبة نمت فيها وازدهرت لتثمر عطاء غزيرا على يد جيل من الادباء ، كان (وصفي قرنفلي) واحدا منهم ، فوجد في الرومنسية ضالته ومبتغاه ، ليصبّ فيها تعبيره عن نوازع فردية متمردة ، كما وجد فيها وترا تعزف عليه (الأنا) المختنقة المحبوسة التي مزقها الالم والصراع اللامجدي مع واقع بائس متخلف جامد أصبح

التلاؤم معه ضربا من المستحيل. فيغمس الشاعر المرهف المتوفز الحسّ في تجارب فردية ذاتية يغرق فيها همه وينسى ذاته ولو الى حين . ويتعرى عن الوجود المزعج المقلق بالشعر الذي يسرح وراء الجمال ، جمال المرأة ، ـ المرأة العزاء ـ يتصيد بسمتها الربيعية المنعشة ، ويتفيأ ظلال هدبها . وينتشي بما يفوح من صبوات اذا مشت أو همست أو غمزت :

وتغمز جارتي : أتقول شعرا ؟
فلم أنبس . كأن الامر سرّ
وقالت : غنّ بي شعرا ، وصفني
فملت بها أتمتم : أنت شعر
على شفتيك متكأ المعاني
وفي الهدبين قافية وبحر !
ونهدك ـ آه ظل النهد ـ حلم
تفتح في الصدار، فقيل: فجر !
دم العنبرين منطلق يغني
كما غنى مع النسمات زهر
خطى نغم ، وخصر مستجيب
سرى.. فالافق أنى سرت، خمر
أناضل في سبيل العيش يومي
وأرجع والدم المكدود قفر
وتبتسمين ... فالدنيا ربيع
وحب والحياة رضى ويسر
شبابي حال خلف دمي ، حطاما
وبعثرت القصائد فهي نثر
ولحت .. فكل جارحة قصيد
أبعث ؟ والحطام الميت نخر
سفحت الاربعين وقلت : حسبي !
فضجّ القلب: هذي(الحسب) نكر
الى أن ننتهي ... فضممت قلبي
أقبله .. وقلت : وأنت شعر..

وهذه تجربة ذاتية أخرى يسبّح فيها الشاعر بحمد الجمال المصفّى ، ويصلي في هيكل الحسن المعبود ، ويرتل انشودة الهوى المشبوب العاصف ، حيث تبوح (الذات) بمكنون وجدانها . وتهمس (الأنا) العاشقة المدلّهة مسحورة مبهورة تتعزى عن (قبح) الواقع ، بجمال يتجسد مفاتن أنثوية يغرق فيها الحسّ ، وتستريح في ظلالها الاعصاب المتعبة المكدودة المتوفزة .

في زحلة ، جارة الوادي ، أمضى الشاعر يوما وليلة ، فكانت ذكريات ، وكان شعر ، وكانت قصيدة :

(مادون) (١) ! تلويح بقبله زاد الغريب ، وما أقلّه
وغدا أروح وتنطوي في القلب، أنى رحت، غلّه
(مادون) هذي كبرياء الشعر بين يديك ذلّه
ما زحلة السمراء ؟ ما وادي العرائش ؟ أنت زحله
ماذا ؟ وراح الشعر يحلم فيك تفصيلا وجمله :
شفة . وقل : سبحانها . سجد النبيذ لها وألّه
سلبته نكهته ورفة لونه القاني وفعله
فأطلّ يلهث كالغريب يدور لم يبرح محلّه
غمزت هنا . بل من هنا ، قتلته ايماء ونقله
... شفة . سل الشفق المحشرج : من سقاه دما وعلّه ؟
وتلفت الكرز الذبيح الى العقيق : دمي ودلّه
...والهدب. يا نعس الهوى سكب البنفسج فيه كحله
الفجر هوّم برعما والعطر تمتم فيه قبله
... مادون أي مادون ان عقل الهوى حطمت عقله
أنا في الهوى طفل وأنت وراء هذا الفنج طفله
ما زحلة السمراء ؟ ما وادي العرائش ؟ أنت زحله !

* * *

واذا كان جان جاك روسو يدعو الى العودة الى الطبيعة والارتماء في أحضانها واتخاذها ملجأ أو مهربا من قسوة العيش وتعقيد الحياة وتشابكها وضجيجها.. واذا كان لامارتين في (البحيرة) يستنطق الطبيعة ، غاباتها ووديانها وغدرانها وجداولها وكهوفها، ويشخصها ويخلع عليها الحياة ليناجيها ويبثها شجونه وأحزانه ، ويستودعها أسراره ومكنونات وجدانه ، فوصفي قرنفلي لا يقلّ عنهما التحاما بالطبيعة والتصاقا ، ولا يقصر عنهما تشخيصا وتأنيسا واحياء وتحريكا ، حتى تنقلب الطبيعة كائنا حيا يتنفس ويضطرب ويلهث ، بل ويعاتب ويلوم ، ويغني ويرقص ويهفو ويميل ويسكر ويطرب :

هزّني صاحبي وقال : أفق فالصبح نديان ناعم يتفتح
قم أخا الشعر ، فالقوافي عذارى
عاريات كالصبح ، في المرج ، تصدح
سبقتنا الطيور فهي تغني
منذ حين ، والورد في العطر يسبح
همّ نيسان بالعتاب : أيغفي في صبا
حي ؟ والكأس باللوم أفصح
فتثاءبت ، والكرى في جفوني
وتناهضت نحوه ، أترجح
فاذا الصبح، في غلالته الزرقاء، ساج ينهلّ طيبا، ويلمح
بين هدبيه من عطور الليالي حلم هزه الضحى فتفتح
..طلع الصبح! فالفضاء مدى عينيك، عطر سار، ونور مجنح
عرس الشمس، زغردت في فم الصبح، وراحت تزقه فترنح
.. والطيور استقلت الجو أسرا
با ، وراحت تدغدغ الجو ، صدّح
مشهد يعقل اللسان ، ودنيا
ترسل النفس في الفضاء ، فتسرح

(١) اسم حسناء الشاعر .

لذة كالنسيم ناعمة بيضاء تنساب في الصدور فتشرح
قلت : يا صبح مرحبا ، وسألت الشعـ
ـــر : ماذا تـرى ؟ فصـلى وسبّح !

* * *

واذا كان الرومنسيون يعيشون في أعماقهم مأساة الضياع والتخبط ويندبون (الآمال الضائعـة) المتحولة الى رماد منطفىء ، واذا كان احساسهم بالغربة والمرارة والخيبة ينغص وجـودهم ويملأ أفواههم بطعم الملـح فيسعون وراء السراب يتعلقون بأذيالـه ، ويجرون وراء الوهم والخيال يستحلفونه أن يحملهم على أجنحته ، فان شاعرنا يشعر أعمق ما يكون الشعور بالحاجة الى قناعة تملأ فـراغ النفس ، وعقيـدة تشحن خواء الروح ... فيتعلق بالآمال ويستمسك بها ، ولو كـانت سرابية ضبابية بعيدة لا تنال ، زئبقية لا تمسّ ، ويعلن عن رضاه بالاوهام واكتفائه بالاحلام ، فهي خبز الحياة ، ونبيـذ الشرايين الباردة ، وهي الزاد الذي لا غنى عنـه في رحلة الوجود .

أليس الوهم في لحظات أحلى مـن اية حقيقة ؟
اليس السراب في لحظات أندى من اي ينبوع ؟!

* * *

عصف اليأس بالبقية من كأسي فأفرغت في التراب شرابي
ونفضت المنى فأهوين أنقاضا «الى النار يا سياط العذاب»
آه منكنّ آه أنتنّ دائي وجراحـي وحيرتـي واغترابـي
وتنهدت..مجهد بلغ الشطّ، وأجهشت للضفاف الرطاب:
أيها اليأس ! أنت برء وعَود مطمئن الى مراح الشباب .

* * *

حلم كاذب صحا من جراح لا تعي..هل وعت مدى القصاب؟
الدجى مغلق . ترى الصبـح قد مـا
ت .. هل الصبح مثلنا من تـراب ؟
أي تيه هـــذا .. ألا ناس في الار
ض ، ألا درب في ظـلام الضبـاب ؟
عطش في اللهى ينوح..ألا ساق..أما ثمّ قطرة من شراب،

* * *

قيل : في اليأس راحة .. تعس القو
ل ، وهـذي أشلاؤه في ثيـابي
ان شر الجراح جرحك يا يأس، بل الموت دون هذا العذاب
الفراغ العقيم لون من الموت تعرّى حتى مـن الاكتئاب
خلق العقلَ كافرا وطغى العلم وصرّت أنيـابه كالحراب
فتهاوى الايمان شلوا ذبيحا يتضاغى ما بين ظفر وناب
يا ضلالي .. طـال السرى وتداعـى
دربك الميت متعبـا فـي الشعـاب
يا لرجس العنوم! أنقى وأسمى من جميع العلوم طهر الغاب
أن خيرا من الحياة بلا ربّ ، واندى ، عبـادة الانصاب

* * *

المنى والدموع والالم المبدع سر الحياة ... روح الشباب
والمنى والدموع والالم المبدع حـالت الى رمـاد هـاب
نفض اليأس في دمي عنصر الموت وذرّ الصحراء في أهدابي
قتل الشعر في فمي ولواني عن صحابي فملّني أصحابي
صبغ الافق بالدجى وأتى الخمر فصبّ الظلام في أكوابي
عقم لفني وسمتر دنياي .. فماذا ؟ والعقم في أصلابي
يا لفقري حرمت حتى من الدمع ومن رعشة الاسى في اهابي
يا أمانيّ عدن بي، هزني الشوق وضجت في رمتي أعصابي
عادني الشوق يستفيث الى دائي وجرحي وحيرتي واغترابي
يا أمانيّ انقضى في دمي الميت خفقـة من خضـاب
يا ضلالي عد بي الى الوهم اعبـده وابن في ظله محرابي
الاماني من سراب..ولكن آه.. من لي بجرعة من سراب؟!

* * *

واذا كـانت آلام (ألفريد دي موسيه) وبوحـه الشاكي وانينـه الخافت ، ونشيجه المحشرج ، قـد انسكبت عصارة شعرية مصفاة في قصائده الرومنسية ... واذا كانت جراح فؤاده المدمى قد صبغت قوافيـه بألوان الاسى والكآبة والغم ، فغدت شاهدا خالدا عـلى (ألأنا) المعذبـة المفردة الوحيدة التي لا معيـن لهـا ولا أنيس في وحشة الحياة وصحـراء العيش ، فان آلام وصفي قرنفلي قد فعلت فعلها ولعبت دورها في شعره، فانعكست حسرات دامعة واجترارا للذكريات يمضغها ، ورثاء للشباب الذي لن يعود ، ورنـة تشاؤم سوداويّ كئيب يعلن فيـه الشاعر استسلامه ورميـه للسلاح واعترافه بالهزيمة وتسليمه بالانتهاء والانطفاء ... فراح يترقب المصير الفاجع وينتظر بل يتوقع فاجعته النهائية التي تنهي سائر الفواجع وتختمها . ها هو ذا يبعث الى صديقه صاحب مجلة « الاديب » بقصيدته الشهيرة : « طلائع النهاية » :

حسبي ، فهذا دمي قد جفّ واتأدت
خطاي وانطفأت فـي دربـي الشهب
أمضي مع الدرب حيران الخطى قلقـا
والتيـه يجهش فـي قلبـي وينتحب
جفّ البيان . وكان الورد ، في شفتي
وكنت ، ان قلت شعرا ، برعم الادب
تمرّ سمراء ، ان مرت ، فيتبعهـا
طرفي فيكبو فيغضي . والهـوى تعب
ويزار العصر أحـداثا فالجمهـا
بالصمت كالقبر ، لا شوق ولا غضب

وكنت ، اذ كنت شعرا ، كلما ومضت
بنا الحوادث كالتيار أصطخب
على الشفاه ـ ومالي لا أدلّ بها ـ
قصائدي خمرة او نكهة عجب

* * *

صحا السراب فنام الشعر في كبدي
كان السراب منى ، ان المنى لهب
الكأس تلهث في كفي ، وقد ظمئت
والصمت متكىء كالكأس ، مكتئب
يا ذكريات اسكبي في الكأس ، مضطرما
كالنار ، من أمسنا ، يضحك بها الحبب
خبت ليالي الا من تنهدة
تئنّ ثكلى والا خافقا يجب

* * *

حسبي ، وأفرغت كأسي ، في قرارتها
أفرغت دنياي لا جدّ ولا لعب
أحسّ ان ملت بالصهباء أسكبها
كأن عمري وراء الكأس ينسكب
أرى النهاية خلف الدرب تومىء لي
تخبّ نحوي ، ومشيي نحوها خبب
واليأس ، هذا الفراغ الميت في كبدي
ليل تساوى لديه البعد والقرب
العقم والليل والصحراء ، تلك أنا
حتى كأني اليّ الموت ينتسب
قلبي (كنرجيلتي) يغفي على حلم
قل يا رماد : ترى هل يورق الحطب !
يا درب عد بي فصاح الدرب : واحزني
وأطرق الشيب يبكي : فاتك الطلب
هيهات .. أو يسترد النبع جدوله
ويورق الشوك ، في عنقوده عنب !
اذا الشباب مضى ، فالعمر أطيبه
مضغ الرمال ، سراب طعمه كذب
ماذا ! ومات سؤال لا جواب له
ومال هدب ، وأغضى لا يرى ، هدب !

* * *

تلك كانت مرحلة الرومنسية عند وصفي قرنفلي : شعور حاد بالغربة والضياع ... وتخبط عشوائي لا يعرف له مستقرا ولا وجهة يتجه اليها ... وابحار مع التيار لا يأمل في مرفأ أو ملجأ ، وانكفاء على الذات وتغنّ بشجونها ، وانصات الى ما تهمس أو تبوح به ، وسعي حثيث لا يتعب وراء لذة عابرة تتجسد جرعة شراب أو قبلة شفة ظمأى ... ولهفة حرّى لاهثة وراء السراب ولا وصول .. واجترار للذكريات والحسرات الدامعة ..

ولكن الشاعر اذا كان يحسّ الاصغاء الى بوح ذاته وهمس ما بين أضلاعه ، فان ذلك لا يعني انه لم يكن يحسن الاصغاء كذلك الى أصوات أخرى ، وان كانت خفيفة بعيدة ، ولا يعني انه عاجز عن تلقي تلك الهمسات الناعمة التي ما لبثت أن أصبحت ضجيجا يقرع الاذن ولا يمكن التغافل أو التغاضي عنه ... فبعد الحرب العالمية الثانية ، ومع بداية الخمسينات ، راحت تلوح في الافق معالم تبدلات طارئة جديدة في شتى الميادين والاصعدة ، كما راحت تلوح في الافق تباشير هزات عنيفة تحاول أن تضرب الحياة العربية في جذورها لتحيي مواتها وتدفىء جامدها وتحرك ساكنها ... فاذا الانسان العربي ـ ولا سيما الطليعي ـ مدعو الى مراجعة الحساب مع وجوده المشوه ، ومعاودة النظر في شؤون حياته التي يغشيها الخمول والقبح ، خمول التخلف ، وقبح الاستغلال والظلم والقهر والخرافة .

اذن هناك تيار عاصف جارف أخذ يهبّ على الارض العربية ليوقظ النيام ويفتح العيون والبصائر على واقع يجب أن يتغير ، وعلى طرز وعلاقات وأنظمة للعيش ما عادت مقبولة ولا مستساغة ، بل حقها الرفض والطرح والتبديل .

فرز طبقي راح يتوضح ... ساحات جديده للنضال مهدت لتجري على أرضها معارك من طراز مختلف .. فالعدو لم يعد المستعمر الدخيل وحده ... بل ما أكثر الاعداء وما أكثر الجبهات ..

وهكذا صبّت دماء جديدة في شرايين الحياة العربية ، وشاع في الوجود العربي قلق فتطلع فتحفز وتوثب نحو وجود أرقى وأجمل وأكمل .. ولكن التطلع والتحفز لا يكفيان ، ولكن القلق والتوثب لا يجديان ، انهما مرحلة تسبق وتمهد لمرحلة الوعي والاستبصار . وعي الحقيقة القائلة : انه لا بد من العمل ، لا بد من النضال والقتال ، فالمعركة قائمة مفروضة والسلاح لا غنى عنه لمن يريد المعركة ومجابهة العدو .

وراح الشعراء العرب يتنسمون هذه النسمات التي أخذت تمسح ما ران على الاجفان من نعاس ، وتغسل الغشاوات التي كانت تحجب الرؤية ، رؤية الطريق الواضحة المعبدة .

وقد كان وصفي قرنفلي سباقا مجلّيا ، وقد كان طليعيا بكل ما تعنيه الكلمة من وعي ناضج وفكر متقدم وانفتاح سريع على معطيات المرحلة ، فكان (ملتزما) بصدق وعمق وايمان عجيب وحماسة مذهلة .

وها هو ذا الشاعر يخرج من التيه الذي كان يخبط فيه ، ويتلمس دربه ، فسرعان ما يجد ذاته في هذا

الالتزام ؛ وسرعان ما يلقى في الواقعية الاشتراكية صمام الامان الذي يعصم من السقوط ، ويحمي من الضياع والهروب والتمزق ، فيعلنها صريحة مدوية ويصرخ مع الصارخين من رفاق الدرب : « لا هوادة » :

ايه يا شعر قد لهونا زمانا
بالقوافي كأسا وهدبا وثغرا

ملئنا العاج ، والسموات ملت
حلما ينسج الاساطير شعرا

... أين يا شعر ؟ والشعوب نضال
ضاء عزما وطار بالارض بشرى

...مرحبا بالنضال، يا شعب، خذني
خذ دمائي في سفرك الضخم سطرا

* * *

وقد يعجب الواحد منا فيقول : ما لهذا الرومنسي الذاتي المتكفىء على ذاته المنطوي على نفسه ، الراكض وراء السراب ، ينقلب الى العالم فينفتح على الناس ويتبنى قضيتهم ويحتضن آلامهم، ويجند قلمه لاستعادة حقوقهم الضائعة في العيش الحر الكريم ؟

ولكن سرعان ما يزول العجب حينما نعي هذه الحقيقة . حقيقة ان الرومنسية في جوهرها رفض للواقع المشوه واحتجاج صارخ على ما فيه من قبح ...

وهكذا فليس هناك الا خيط رفيع يفصل بين الرومنسية والواقعية ..

ولا عجب ولا غرابة أن نرى شاعرا مثل (وصفي) ينتقل الى صف (الملتزمين) بقضية الشعب المكافح ليكون شعره صدى يرجع صوته ويتغنى بملحمة نضاله الصعب المرير .

وهذا هو . باعتراف صادق محبب ، وببساطة متناهية آسرة ، يحكي حكاية نقلته وتحوله . انه يعي ما كان عليه ، وهو يعي الآن ما صار اليه :

ما كذبت التاريخ ، مر زمان
كنت في التيه شاعرا ضليلا

اسأل الشوك أن يعنقد أعنا
با رطابا أو يستطيل نخيلا

سمرتني الطلول ــ والقلب طفل ــ
ويح التيه كم يرود الطلولا

... وانجلت غمرة الضلال فأبصر
ت فآمنت .. فاتبعت الرعيلا

اشرق الشعب في دمائي صبحا
فعرفت الهدى وذقت الشمولا

... قل لمن يطلب الدليل الى الصبـ
ـح : دماء الشعوب قامت دليلا

... أنا للشعب ما حييت ، وللدر
ب ، يمينا لا تعرف التأويلا

قصتي قصة الملايين منهم
كتل البؤس حقدنا تكتيلا

بي من البؤس ما بهم ومكاني
بينهم حيثما تولوا سبيلا

نسأل الشعر ان يكون شعاعا
هاديا ... في طريقنا مسؤولا

* * *

اذن فالشاعر الآن يعي ذاته الملتزمة وموقفه الواضح الصريح . ويعرف اين يقف ! انه مع الثورة الهادرة في ضمير الجماهير المحرومة التي طال عليها الحرمان ، وهي تدرك الآن أسباب بؤسها وعلل شقائها ، كما تبصر طريق خلاصها ودرب انتصارها .

والشاعر يتابع هذا الوعي ويرصد حركاته وسكناته، ويمشي مع مراحله خطوة خطوة ، ويرى اليه جنينا فوليدا فشابا مفتول العضلات يشمر عن ساعديه مزهوا بشبابه وفتوته :

لا .. لم نعد ما يزعمون
ما يزعم المتأنقون
حلما على درب النجوم يلف أهداب النجوم
يبكي ويغزل حبه شعرا كتمتمة النسيم
فليسمع المتثائبون
وليسكت المتسائلون
كبر السؤال . اما تراه على الشفاه وقد تفتح ؟
الدرب ابصر ، فانطفىء يا ليل ، ان الصبح لوح
قل للرفاق التائهين
في الشرق تمضغه السنون :
(ففراء مكة) حطموا حكم القناعة واستفاقوا
الجوع ليس من السماء .. فمن اذن ؟
وهنا أفاقوا
ومضوا .. فمن متسولين على الرصيف لثائرين
يناقشون ويضغطون على الشفاه ويسألون
الجوع ؟ صنع الناهبين الشعب ، صنع الاثرياء
أخذوا المعامل والحقول وطوقونا بالقضاء
ومشت جموع المؤمنين
تطأ الدجى تطأ السنين
ماذا ؟ ويسألني الرفاق ، رفاق ايام الطفوله :
الحب يسأل عنك والسمراء تسأل والخميله
لا.. لا سؤال سوى (متى ؟) ابدا ندور بها قصيدا
الكأس تومىء والضحى ، لا كأس ما دمنا عبيدا

ألبدر .. الشرفات .. السمراء .. الهدب المكسّر
حلم على لهب النضال يموت .. قل للحب يثأر

. . .

يا شعر خذ ما شئت في القبلات والكاس الرويه
واذكر وراء الكأس ، ان لشعبنا ولنا قضيه !

* * *

وانطلاقا من معطيات الواقعية الاشتراكية يدرك الشاعر ان الثورة ليست وعيا فحسب ، وليست احساسا بالظلم واستشعارا له ... ان ذلك مرحلة ، انه خطوة تسبق (الفعل) .. ومن يفعل ذلك (الفعل) ؟ الجواب واضح صريح ، انه الشعب ، انها الجماهير العريضة ـ ذات المصلحة في هذه الثورة .

والشاعر يبشر بهذا الفعل ، بل ويحرض عليه ويدعو اليه ويشير الى دربه الذي يجب أن يسلك .. هذا الدرب المؤدي الى مجتمع ينتفي فيه الظلم وترفرف عليه رايات الاخاء والحب ، وترن في جنباته أناشيد الحرية الحقيقية ، حرية الانسان وقد انتصر على مستغليه ، وأرجع الحق الى نصابه ، وراح يبني عالم العدل والرخاء للجميع ، عالم العلم والازدهار ، على أنقاض الخرافة والوهم والرضى بالواقع الاسود :

أيها الشعب ثر بجلادك الوغد وهيا بنا نقدّ الاسارا
أنت دنيا، اذا تحفزت مادت تحتك الارض خشية وانذعارا
وتكتل وانهض كما نهض السيل وفجر في شرقنا الاعصارا
حسب هذي « الارباب » تطغي وتبغي
أنزفتنا « أربابنا » استثمارا
طأطأ الذل هامنا فامتطونا
واستطالوا في ظهرنا استكبارا
ايه يا شعب ثر بهم لا تطأطىء
بلغ الصبر أفقه فاستجارا
.. هل رأيت القضاء أطبق وانقضّ أيثنى؟ هل تعرف التيارا؟
أيهذا الوسنان قد أزف الفجر ونادى بنا، فحسب انتظارا
اصفع الليل انه مات وانحلّ ، وأيقظ في جانبيه النهارا
لن نكون العبيد، ان لنا الدنيا سنمضي في شوطها أحرارا
نملأ الارض والحياة اخاء
نفرش الارض والحياة ازدهارا

* * *

اذن فالشعوب صانعة الحضارات بل المعجزات ، اذا عرفت طريقها ، وليس الملوك والحكام .

تلك هي مقولة العصر ، ومنطق المرحلة التاريخية الراهنة ، والشعوب لا بد منتصرة ، وهي لا بد ، واصلة الى اهدافها طالما تسلحت بالوعي والعزيمة .

ولكن العدو رهيب شرس ، وهو الى ذلك ، ذكي مسلح بالمال والعلم يرغي ويزبد تارة . ويرشو ويصانع تارة . يهدد ويتوعد صراحة وجهرا ، ولا يتورع عن البطش والقهر والفتك بضراوة ووحشية .. وحينا يمكر ويخدع ويموّه فيشتري الضمائر والاقلام ، ويستميل القلوب ويغش البسطاء وينصب له أصدقاء ومبشرين ودعاة وحواريين !

أذن فانتصدي لعدو هذا شانه ليس بالامر السهل، وليس الوقوف في وجهه والدخول معه في معركة قضية هينة .. انه يملك ان يدمر الحضارة الانسانية بحرب ضروس اذا هو ركب رأسه وارخى العنان لجنونه ... ألم ينجح مرة في اثر مرة في أن يحبس انفاس الناس خوفا من اندلاع هذه الشرارة ، شرارة الحرب، وما ادراك ما الحرب ؟! ألم ينجح مرة على مرة في ان يجعل الناس يعيشون هذا الرعب المدمر من كارثة عالمية تعصف بكل ما انجز الانسان عبر تاريخه الحضاري ؟

اذن ما على الشعوب الا ان تناضل في سبيل (السلام) وتقاتل اعداء السلام ، تجار الحروب وسماسرة الطائرات والدبابات ، فعدوها واحد وقضيتها مشتركة .

وهكذا ينعقد في دمشق في ربيع الف وتسعمئة واربع وخمسين مهرجان للسلام تحتشد له الجماهير لتصب غضبتها على الامبريالية ـ صانعة اسرائيل ـ ونصيرة الحروب ، عدوة الشعوب المستضعفة المكافحة .. وتصفق الجماهير لقصيدة وصفي قرنفلي :

« مع السلم »

سبح الصبح باسمنا اذ رآنا
وانتشى الدرب يوم همّت خطانا
صفق الجدول الصديق يحيّينا ونادى فايقظ الاقحوانا
وهفا برعم يسائل : من يا أم ؟ قالت : أظنهم نيسانا
ما عدوت الصواب يا أخت انا
من تسمّين واقعا لا بيانا
نحن معنى الربيع نورا ودفئا
وازدهارا فمن رآه رآنا
نحن معنى من الطليعة في الشعب، اذا الشعب هزنا او نخانا
نزرع الخصب والمحبة والسلم ونسمو بشعبنا بنيانا
قل لمن يزعمون عالمهم حرا : أحر يستعبد الانسانا ؟
كم خدعتم (بالعالم الحر) شعبا
والتهمتهم على اسمه أوطانا
قد عجنا (دولاركم) وخبزناه فكان التزوير والبهتانا
يهب الشعب باليسار ويمناه تحزّ الوريد والشريانا
ان هذا الدولار ، لو يقرأ التاريخ تاريخنا ، لاتقانا
عرب نحن ، والعروبة انسان شريف يستنكر العدوانا
كل تاريخنا انتفاضة أحرار وشعر يستصغر العبدانا

* * *

وطريق الثورة وعرة شائكة ... ودربها زلق موحل .. فما اكثر العثرات وما اصعب السير ، وهذا ما يغري ضعاف النفوس باليأس ويدفع بهم الى التشاؤم ويعمي بصائرهم عن استشراف المستقبل المنتصر ، مستقبل الشعوب وقد رفعت رايات انتصارها واعلت صروح حياتها النظيفة الخالية من الادران .

وهكذا فالثور لا تعرف التشاؤم .. وكذا الثوري، وكذا الواقعي الاشتراكي ، لانه يملك الرؤية الواضحة ويعرف كيف يقرأ التاريخ ، وكيف يستشرف المستقبل الوضاء لشعبه ولجميع الشعوب .. فيغني ويغني للغد الجميل ، غد العلم المنتصر على الجهل ، والحرية المنتصرة على العبودية ، والعدل المنتصر على الظلم ، والصحة المنتصرة على المرض ، والحب المنتصر على الحقد :

وكأن الغد المخضّب بالنار على مقلتي أراه الآنا
نحن يا صبح للحضارة نذكيها وللارض تستحيل جنانا
نحن للعلم والحياة وللآداب والفن اشرقت ايمانا
غدنا المشرق الصبيح انطلاق
يوقظ الارض يطلق الامكانا
ثورة الحياة .. تبدأ تدميرا ورعبا .. وتنتهي بنيانا
تنقذ الارض من جراثيمها السود ، وتبني فترفع الانسانا

* * *

ذاك هو التفاؤل الثوري المطعّم بالامل الذي لا ينطفىء .. وتلك هي قناعة كل أديب ملتزم .. واذا كان الليل العنيد يقسم ألا يحول .. والدرب يقسم الا ينتهي .. فالانسانية تقسم ان تشق الليل وتخط الصبح .. وان تصل ..

* * *

وبعد .. تلك هي حكاية (وصفي قرنفلي) في رومنسيته وواقعيته عبر مرحلتين تبدوان متميزتين متباعدتين .. وما هما في الواقع الا وجهان لحقيقة واحدة : انها الشاعر الانسان الذي اوصى ان يكتب على ضريحه :

لقد غدوت ترابا لا يحركني
بيت من الشعر أو زهر على غصن
حسبي ـ ولا حسب خلف القبر ـ متكأ
في حضن أمي واني في ثرى وطني
وانني كنت ـ والاحرار تعرفني ـ
حرا ، أضأت دروب الشعر في زمني

دمشق

صدر حديثا

روايات وقصص
د. سهيل ادريس
في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني
(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق
(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق
(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس
في جزئين :
اقاصيص اولى
اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب